مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 87 - 101 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التصورات النظرية لمفهوم الشعر ببلاد المغرب الإسلامي.

Theoretical Perceptions of the Concept of Poetry in the Islamic Maghreb Countries

Toumi Hicham / تومي هشام *

جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)،

University of Abbas Laghrour Khenchela (Algeria)

toumi.hicham@univ-khenchela.dz

تاريخ الإرسال: 2022/02/24	تاريخ القبول: 2022/03/30	تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص البحث

مرّ مفهوم الشعر لدى النقاد المشارقة على مراحل متعددة وفي بيئات مختلفة بغية تحديده تحديدا واضحا، ويبرهن اهتمامهم به تلك المصنفات الكثيرة التي حوت أفكارهم حوله، كما لا يخفى على جاحد ما قدمه النقاد المغاربة من تصورات طيبة تخدم هذا الفن القولي الجليل، فكانت لهم وقفات كثيرة تسعى إلى تحديد مفهومه، وعلى هذا الأساس تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على ما قُدِّم في هذا الإطار عند النقاد المغاربة، ومعرفة ما إذا كان هذا الإرث النظري المغربي قيمة مضافة من خلال تصوراتهم تلك عن طريق الوصف والتحليل الذي أثبت استفادتهم من الإرث النقدي المشرقي في محاولاتهم تحديد مفهوم الشعر.

الكلمات المفاتيح: مفهوم الشعر، نقاد مشارقة، نقاد مغاربة.

Abstract :

Poetry, for eastern critics, has passed through multiple phases and different aspects in order to clarify and define it. Their interest in it is demonstrated by those many works that include ideas about it.

As it is known, the Maghrebin critics have given good perceptions that serve this great art of speech; so, they had many actions that seek to define poetry's conception. On this basis, this study seeks to stand on what was presented in this context by Maghrebin critics and to know whether this Maghrebin theoretical heritage is an added value through their perceptions by describing and analysing

* هشام تومي: toumi.hicham@univ-khenchela.dz

which proved that Maghrebin critics benefited from the oriental critical heritage in their attempts to define the concept of poetry

Keywords: poetry, Eastern critics, Maghrebin critics.

المقدمة:

لا يقل شأن الإرث النقدي ببلاد المغرب الإسلامي عما خبرناه وما تزودنا به من معارف ارتبط جلها بما هو وافد من المشرق فيما يخص فن القول الشعري على وجه التحديد، حيث منح المشارقة هذا الفن منزلة رفيعة بجعلهم إياه ديوانهم وحاملا لمآثرهم وصورة لبيئتهم...، وقد أخذ مفهوم الشعر ونقده يتبلور لديهم عبر مراحل متعددة وفي بيئات مختلفة ولدى كثير من المهتمين به سواء كانوا لغويين أو شعراء وكتاب، جاهليين ومسلمين، وفلاسفة أيضا بغية الوقوف على حقيقته المفهومية التي لازالت لحد الساعة مثار جدل في الأوساط النقدية، حيث تتبدل النظرة للشعر من عصر إلى عصر نظرا لسمة التجدد التي يتميز بها، لذلك يصعب تحديده تحديدا جامعا مانعا، فكان سعي النقاد من خلال تلك المفاهيم وذلك الاهتمام المتزايد أن يحيطوا بكل جوانب هذا الفن القولي الذي قال فيه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ((الشعر كلام من كلام العرب، جزل تتكلم به في نواديها، وتسل به الضغائن بينها))، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: ((لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين.)) وقال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه)). نظرا لقيمته السامية التي حظي بها بينهم وشدة تعلقهم به، وهذا ما حدا بالنقاد المشارقة الذين أسسوا اللبنات الأولى من خلال دأبهم على تبيان كل ما يتعلق بعلمهم هذا وأن يضعوا في حقه مصنفات عديدة تتناوله بالدراسة والتحليل.

واهتمام المغاربة بالشعر –على حد السواء- يُتَرْجَمُ بعكوف كوكبة مُشَرِّفَةٍ ذات همة عالية من النقاد البارعين الحاذقين الذين وقفوا على عديد القضايا التي ارتبطت بالشعر العربي، فكان لهم باع من خلال مؤلفاتهم التي حوت آثارهم وأفكارهم وتصوراتهم ونظرتهم له بما أنه باب شريف ومهم، وعلى هذا الأساس يمكن أن تطرح مجموعة من الأسئلة المشروعة التي تنبني على:

1- ما مفهوم النقاد المشارقة للشعر؟
2- هل يمكن اعتبار ما قدمه المغاربة من تصورات نظرية لمفهوم الشعر امتدادا لما توصل إليه النقاد المشارقة؟

3- وهل يمكن أن نجد في مؤلفات بلاد المغرب الإسلامي قيمة مضافة أو جديدا تجاوزوا به المشارقة حتى يكسبهم ذلك تفردا وخصوصية؟

أولا: مفهوم الشعر عند بعض النقاد العرب (المشارقة):

من خلال ما حوته المصادر النقدية العربية وما تداولته حول الشعر يتعرف القارئ دون جهد أن للشعر يدا طولى وقيمة عليا في نفس العربي، حيث أنه كان بمثابة السيف السليط الذي يبز الأعداء والسلاح الفتاك الذي يعلي ويخفض شأن من يشاء، وأنه مدعاة لتفاخرهم بأنسابهم وقبائلهم وشجاعتهم ومغامراتهم وحلهم وترحالهم...عبر العصور، ولا جرم في ذلك فهو مصدر من مصادر عزهم وعروبتهم... وقد اشتغل به العرب قديما ومنحوه أولوية قصوى في تآليفهم الكثيرة فبحثوا في تعريفه وتبويبه وتصنيفه وفي حل قضاياه التي ارتبطت بجودته وجماليته، سلاسته وجزالته وتأثيره...

حري بنا ونحن بصدد البحث في مفهوم الشعر أن نقف على التصور اللغوي عند من اختصوا بهذا المجال في معجماتهم الثرية بغية الامساك بدلالته المعجمية لديهم، حتى يتيسر لنا فيما بعد أن ندلف إلى تصوراته المفهوميه لدى النقاد الذين عنوا بوضع تعريفات له.

جاء في لسان العرب لابن منظور حول مادة شعر ما مفاده: "... والشعر منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعرا من حيث غلب الفقه على علم الشرع... وقال الأزهري: الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار، وقائله شاعر لأنه يَشْعُرُ ما لا يَشْعُرُ غيره أي يَعْلَمُ... ويقال: شَعَرَ فلان وشَعُرَ يَشْعُرُ شَعْرا وشِعْرا، وهو الاسم، وسمي شاعرا لفطنته."[1]

إن تقصي الدلالة اللغوية لهذا المصطلح الذي نروم تحديده في المعاجم اللغوية القديمة يُفضي إلى عدم وجود أي خلاف بين ما قُدِّم من لدن هؤلاء اللغويين، سواء مع الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس، أو تاج اللغة وصحاح العربية للإمام أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، أو غيرها حيث تشي تلك التعريفات إلى خصوصية الشعر عن النثر بأنه كلام منظوم موزون ومقفى ينشئه ناظم يتميز بفطنته وعلمه ومعرفته..

من هؤلاء النقاد الذين نستهل بموجبه ما قد يضفي نوعا من محاولة التحديد لعناصره (أي الشعر المائزة عن باقي الفنون القولية الأخرى نجد:

1- ابن سلام الجمحي (139هـ-232هـ) وطبقات فحول الشعراء:

يعد مصنف طبقات الشعراء من أولى المصنفات النقدية التي أفردت موضوعها للشعر وتناول قضايا نقدية من قبيل: السرقات الشعرية، طبقات الشعر وكيف يتم الاختيار، نشأة الشعر العربي، الشعر بين الطبع والصنعة... كما يعد من الكتب النقدية التي قدمت الارهاصات الأولى لمفهوم الشعر "ونخصه بالقول لا لأنه خاض في الأفكار التي خاض فيها غيره من اللغويين والرواة، بل لأنه أول من نظَّم البحث في هذه الأفكار، وعرف كيف يعرضها، ويبرهن عليها، ويستنبط منها حقائق أدبية في كتابه طبقات الشعراء. شارك ابن سلام معاصريه في كثير من الأفكار، ولكنه محصها وحققها وأضاف إليها، وصبغها بصبغة البحث العلمي، وسلكها في كتاب خاص هو خلاصة ما قيل إلى عهده في أشعار الجاهلية والاسلام، فالفرق بينه وبين من عاصره كثير، كثير لأنه زاد على ما قالوا في النقد الفني، وفي النظرات في الأدب، وكثير على الأخص لأنه أودع كل المعارف في النقد كتابا لعله أسبق الكتب في ذلك. أودعها على طريقة العلماء، وفي عرف منطقي قويم، فهو بذلك من الذين أفسحوا ميادين النقد، وهو بذلك أول المؤلفين فيه."[2]، ودون الخوض في ثنايا الكتاب وما قدمه من قضايا تم ذكرها آنفا يجدر بنا التعريج دون اسهاب إلى مفهوم ابن سلام للشعر فنجد هذا القول: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات...ويعرفها الناقد عند المعاينة..."[3]، على الرغم من أننا لا نجد في كتاب ابن سلام فصلا خاصا بمفهوم الشعر إلا أننا نلمس في السطر السابق أنه قد اعتبر الشعر صناعة وهذا يعني أن عنصر الجودة أمر ضروري حتى يتم اعتبار ما يقال شعرا وهو أمر لا محالة يرتبط بالشاعر أو الصانع ذاته عندما يحسن صياغة ما يود نظمه، ضف إلى ذلك عنصر الثقافة التي تحيل في معناها البسيط إلى التزود بالمعارف والإلمام بها.

2- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (159هـ/163هـ-255هـ)

هذا العلم بتميزه وحذقه وفطنته غني عن التعريف به لأنك إن فتشت عنه ستجده في الأدب واللغة وعلم الكلام، فهو الأديب واللغوي والمتكلم الذي يفحم الخصوم ويشغل الأذهان ويشد الأسماع بعمق فكره وسعة ثقافته "...ومع ذلك كله يتميز الجاحظ عن جميع الرواة بل يتميز عن جميع من ألموا بالنقد في القرن الثالث، ومرد هذا إلى طبيعته الذاتية وملكاته وسعة ثقافته. ويأسف الدارس لأن الجاحظ لم يفرد للنقد كتابا خاصا أو رسائل، وأنه أورد ما أورده من نظرات عرضا في تضاعيف كتبه كالحيوان والبيان والتبيين ..."[4]، وفي تعريفه للشعر نجد هذا القول المشهور له: "...والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج،

وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير."[5]، هذه هي النظرة الجاحظية للشعر التي على أساسها تم ذكر الأركان الأساسية المشكلة له، وبها يكون قد أعطى مفهوما مغايرا عن سابقيه عندما أقر بأن الشعر الجيد لا يتأتى إلا من شاعر له بصيرة نافذة في توظيف تلك الأركان مجتمعة، فالوزن مثلا من الشروط الأساسية التي تجعلنا نفرق بين ما هو شعر وما ليس بشعر، وهذا المفهوم الشعري قد جعل الكثير من النقاد يذهبون إلى أن الجاحظ من أنصار اللفظ دون المعنى...

3- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213هـ-276هـ):

تظهر البراعة النقدية لهذا الأديب والفقيه والقاضي والمؤرخ المسلم من خلال مصنفه الشعر والشعراء الذي توخى فيه العدل في اصدار الحكم على الشعر والشعراء وفي ذلك يقول: "ولا نظرتُ إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه"[6]، يبدو من خلال هذا المنهج المتبع أن مبدأ المفاضلة لا يكون بين الشعراء لحداثتهم في العصر أو تأخرهم عنه بل ديدنه —كل قديم حديث في عصره– في ذلك الشعر في حد ذاته فجاءت نظرته عادلة وفق ما أقر هو وما اتُّفِقَ عليه، وبعد تركيز النظر وجد ابن قتيبة أن للشعر أربعة أضرب:[7]

- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه.
- وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.
- وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه.
- وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه.

إن هذه الأنواع التي تم ذكرها ووردت في مصنف ابن قتيبة هي التي يجب أن يراعيها النقاد في حكمهم على الأشعار، وعلى هذا الأساس يلاحظ أن هذا الناقد قد اجترح مقياسا يتمثل في حياد الناقد أثناء عملية النقد ويكون ذلك بعدم التعصب للقديم أو بنكران الحديث ونبذه أو إلغاء القديم بحجة أنه قديم مثلا. بل العبرة في الأمر مردها إلى الصلة الرابطة بين اللفظ والمعنى التي تتأسس على الجودة طبعا.

4- مفهوم الشعر عند قدامة بن جعفر (260هـ/276هـ-337هـ):

يقدم لنا قدامة المتأثر بالثقافة اليونانية في كتابه مفهوما للشعر يقول فيه: "إن أول ما يحتاج إليه في شرح هذا الأمر معرفة حد الشعر الجائز عما ليس بشعر، وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز

مع تمام الدلالة من أن يقال فيه: **إنه قول موزون مقفى يدل على معنى** فقولنا قول دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا موزون يفصله مما ليس بموزون، إذا كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا مقفى فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا يدل على معنى يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى، فإنه لو أراد مريد أن يعمل من ذلك شيئا على هذه الجهة لأمكنه وما تعذر عليه."[8]، يظهر من هذا المفهوم أن هناك عناصر أربعة أساسية قد ركز عليها قدامة كي يتم التمييز بين ما هو شعر وما دون ذلك وهي: اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية وحتى تتحقق جودة الشعر لا بد من ائتلافها جميعا. كما أن الشعر عنده صناعة مثل أي صناعة أخرى تتأسس على طرفين أقصاهما الجودة وأدناهما الرداءة وما بين هذين الطرفين يسمى وسطا، ومن الشعر ما هو جيد ورديء ووسط، وقد تحدث قدامة عن الصفات التي تجعل الشعر غاية في الجودة مع تحديد العيوب التي تجعله يصل إلى أدنى درجات الرداءة.

تعد هذه الآراء النقدية إطلالة نظرية عجلى على تصورات المشارقة لمفهوم الشعر، ولا يزعم الباحث أبدا أنه اطلع على جل ما قدِّم في التراث النقدي عند العرب في هذا المضمار الشاسع، فحسبه فقط أن وقف على بعض تلك الآراء المبثوثة في بعض المصنفات التي عنيت بالشعر حتى يتسنى لاحقا الوقوف على ما قدمه المغاربة من آراء متعلقة بتصوراتهم النظرية له.

ثانيا: مفهوم الشعر عند بعض النقاد المغاربة:

لا أحد –على حد الاعتقاد- ينفي تأثر النقد المغربي بنظيره المشرقي، فبغض النظر عن كونهم هم الفاتحون الذين قدموا لهذه الأرض ونقلوا آدابهم وعلومهم لها، فإن استفادة المغرب العربي وبلاد الأندلس كانت واضحة فيما أنتجه النقاد المغاربة في بادئ الأمر، وعلى هذا الأساس فإن الرافد المشرقي العربي الطارئ أسهم في تأسيس ركائز صلبة مكنته من أن يستقل بنفسه في مجال الحركة النقدية ببلاد المغرب "وحين ندرس هذا النقد المغربيّ فإننا لا نريد أن نبتر الصلة التي تربطه بنظيره في المشرق العربيّ، لأن الآصرة قائمة، والوشيجة ماثلة، أضف إلى ذلك أن القريحة العربية–وإن تباعدت سكنا- فإنّها تتشابه إنتاجا بسبب ما يطبع البيئة والعقلية والحضارة العربية التي تستمدّ ضياءها من هموم مشتركة، ومن عادات وتقاليد تكاد تتماثل ما بين الشرق والغرب."[9] وبغية الوقوف على ما كان مسطرا له بمعرفة مفهوم الشعر عند النقاد المغاربة (فقد كان عبد الكريم النهشلي –فيما نعلم- أول من تعرض له بالدراسة، وأفرد له كتابا خاصا عرف باسم ((الممتع في علم الشعر وعمله))...)[10].

1- عبد الكريم النهشلي (ت 405هـ-1013م):

أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الجزائري الشاعر والناقد والكاتب أصله من المسيلة التي كانت تسمى المحمدية صاحب الكتاب المشهور "الممتع في علم الشعر وعمله" أو "الممتع في صنعة الشعر" أو "اختيار الممتع" وفيه يتم التطرق إلى نظرته للشعر حيث وردت العديد من القضايا المتعلقة به من خلال كتاب تلميذه ابن رشيق العمدة ومما طرحه النهشلي في كتابه سالف الذكر: (ماهية الشعر- أولية الشعر- بين الشعر والنثر- فضائل الشعر ومزاياه- القينة الاجتماعية للشعراء في القبيلة- خلود الشعر- تأثير الشعر في النفوس- دواعي الشعر- أصناف الشعر- الإسلام والشعر- الموازنة بين الشعراء- آراء نقدية في بعض الشعراء- وأثر اختلاف البيئة في قول الشعر). أما القضايا النقدية التي أثارها عبد الكريم النهشلي وبخاصة في اختيار الممتع، فهي قليلة، فقد تكلم على: "القديم والجديد- اللفظ والمعنى- السرقات- الطبع والصنعة- نقد بعض فنون الشعر وأطرافه كالنسيب- رأي في البلاغة- فنون بلاغية كالتصدير والتقطيع والاتساع- والأوزان والقوافي) وحتى هذه النصوص التي اختصت بهذه القضايا، قصيرة جدا وتتسم بالشمول والعموم ويغلب عليها طابع العجلة."[11]

والملاحظ على النهشلي أنه من المؤثرين للشعر حيث يرى أنه خير بيان العرب وأن درجته عالية وسامية لفضله وعزته وكرمه حتى أنه يجعله بعد القرآن الكريم منزلة وفي ذلك يقول: "ثم خير كلام العرب وأشرفه عندها هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب، وتجل به النفوس، وتصغى إليه الأسماع، وتشحذ به الأذهان، وتحفظ به الآثار، وتقيد به الأخبار."[12]، وهذا القول يحيل طيا إلى فكرة الإمتاع والفائدة. لكن في مذهبه ذلك اعتبر أن الشعر قدر بين جميع الأمم فهو ليس حكرا على العرب وحدهم إلا أنهم مكثرون فيه على غرار الأمم الأخرى، كما يجد المتصفح لكتابه سالف الذكر محاولة تقديم مفهوم للشعر حيث نجده يقول: "والشعر عندهم الفطنة. ومعنى قولهم: ليت شعري أي ليت فطنتي."[13]، والفطنة هنا ترتبط بالشاعر في حد ذاته فالحاذق الماهر الموهوب له القدرة على قول الشعر في مواطن متعددة ومختلفة، لاجتماع خصائص لا تكون لسواه قوامها الذكاء الذي يمكن هذا الموهوب من التمييز بين دقائق الأمور واكتشاف علاقات جديدة بينها، ضف إلى ذلك رهافة الحس أو الشعور التي تؤدي مجتمعة إلى تشكل الإبداع الشعري، إن كان هذا هو حد الشعر عنده وأنه أتى بالجديد على حسب ما قيل سابقا، فإن الأمر البالج ها هنا هو الوقوف على كون النهشلي بِعَدِّهِ الشعر فطنة.

يذكرنا هذا بالبيت الشعري ذائع الصيت لعبد الرحمان شكري رائد مدرسة الديوان:

حتى وإن وجدنا هذا التعريف ينبني على الدلالة المعجمية التي كنا قد أشرنا إليها آنفا –لسان العرب–مع الدلالة اللغوية لكلمة شعر التي عنت الفطنة والعلم ومن ذلك ما جاء في كتاب العين: "وشعرت بكذا أشعُرُ شعرا لا يريدونه به من الشعر المبيّت، إنّما معناه: فطنتُ له، وعلمت به. ومنه: ليت شعري، أي علمي. وما يُشعِرُكَ أي ما يدريك. ومنهم من يقول: شَعَرْتُهُ، أي عقلته وفهمته. والشِّعْرُ: القريض المحدد بعلامات لا يجاوزها، وسمي شعرا، لأن الشاعر يفطن له بما لا يفطن له غيره من معانيه. ويقولون: شِعْرٌ شَاعِرٌ أي جيد..."[14]، إلا أنه يمكننا ذلك من القول إن النهشلي قد أفاد من النقاد الذين نحوا في تعريفاتهم الشعر المنحى اللغوي من مثل: الأخفش، اسحاق بن وهب، أبو حاتم الرازي وغيرهم حيث كان لهم الأثر البائن في تصور النهشلي لمفهوم الشعر، لكن الأمر الذي يجب التنبيه إليه أن النهشلي كناقد قد فهم فعلا حقيقة الشعر ولم يكن مثل من سبقه من النقاد الذين انتهجوا طرقا عديدة في محاولاتهم إعطاء مفهوم للشعر كما مر معنا سابقا.

كما يشير صاحب الممتع إلى قضية الوزن التي هي من ضرورات الشعر التي تميزه عن الكلام المنثور يقول: "لما رأت العرب المنثور يند عليهم ويتفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم تدبروا الأوزان والأعاريض، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستويا. ورأوه باقيا على مر الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعرا."[15]، وهذا القول يرتبط من ناحية بحديثه عن نشأة الشعر التي وجدناها عند اليونان ترجع لقوى خارقة غيبية وآلهة تتحكم في العملية الإبداعية، أما عند العرب فقد جعلوا لكل شاعر شيطانا كما ورد في كتب الأخبار، ليبرهن من ناحية أخرى على أن الشعر وسيلة من وسائل تخليد المآثر وحفظ المناقب، وأن ما جعله قريبا للقلب خفيفا على اللسان سهلا للحفظ هي تلك الغنائية القائمة على اللحن والإيقاع التي تستدعي بالضرورة الوزن حتى يستوي الأمر عند قائل الشعر فيتيسر حفظه وإنشاده، أما عن أصناف الشعر عند النهشلي فإن المطلع على ما كتبه تلميذه ابن رشيق القيرواني يدرك تمام الإدراك أنه صنفه وفقا للتصنيف الأخلاقي الديني، أي على أساس الفضيلة وفي ذلك يقول وهو يثبت النص لأستاذه "وقال عبد الكريم: الشعر أربعة أصناف: فشعر هو خير كله وذلك ما كان في باب الزهد، والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثل به بالخير، وما أشبه ذلك، وشعر هو ظرف* كله، وذلك القول في الأوصاف، والنعوت والتشبيه، وما يفتنُّ به من المعاني والآداب، وشعر هو شر كله، وذلك الهجاء، وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس، وشعر يتكسب به، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما

ينفق فيها، ويخاطب كل انسان من حيث هو، ويأتي إليه من جهة فهمه."[16]، هذه هي الأصناف التي شملت مراد النهشلي الذي انطلق في تصوره لمواطن الجمال التي يعبر عنها بالشعر الخير الذي ينطبق مع قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أن الشعر: "كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه" ومن الشعر أيضا خبيث وطيب، وقد ورد أيضا أن حسان بن ثابت قال:[17]

وَإِنَّمَا الشِّعْرُ لُبُّ المَرْءِ يَعْرِضُهُ   عَلَى المجَالِسِ إنْ كَيِّسا وَإنْ حُمُقَا

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ   بَيْتٌ، يُقَالُ، إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

ومهما يكن من أمر فإن الجدير بالذكر ها هنا أن النهشلي حتى وإن كان اتباعيا في آرائه النقدية إلا أن هذا لا يعد عيبا طالما نجده يمثل المرحلة التأسيسية لبداية التنظر المغربي التي حتمتها المرحلة المعيشة بكل تفاصيلها، حيث أن صياغة الآراء النقدية المشرقية ستكون هي الغالبة بداءة ولا جرم في ذلك طالما الأرض مغربية والوافد مشرقيا والصياغة مغربية.

2- مفهوم الشعر عند أبي اسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت 453هـ-1061م):

هو صاحب كتاب زهر الآداب وثمر الألباب وقد قصد منه صاحبه الأدب لا النقد "وإنما هو واحد من الكتب الأدبية العامة التي ظهرت في القرن الرابع، يشبه في طريقته الأمالي لأبي علي القالي، والبيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد..."[18]، وهو مصنف موسوعي نظرا لما تضمنه بين دفتيه من أخبار كثيرة وأشعار وخطب وملح وطرف ورسائل ومقامات وأخبار وغيرها وقد تطرق فيه "إلى مسائل بلاغية ونقدية تتعلق بنقد الشعر والشعراء والموازنة بينهم، والحديث عن بعض أغراض الشعر وبناء القصيدة، وبلاغة اللفظ والمعنى والطبع والصنعة، والسرقات الأدبية، ومنزلة الشعر وقائليه، وكلها موضوعات نقدية مبثوثة في ثنايا الكتاب الذي تغلب عليه الصبغة الأدبية."[19]، لقد عمد الحصري في كتابه هذا إلى عديد القضايا التي كانت لها صدى في زمانه بأسلوب أدبي تتخلله شذرات نقدية في أماكن مبعثرة من صفحات مصنفه، وهو في كل ذلك يورد أخبارا مستمدة من شيوخه وممن تتلمذ على أيديهم. وعلى الرغم من أنه تناول ما ارتبط بالشعر من قضايا إلا أنه "يكتفي بإيراد تعاريف مقتضبة للناشئ الأكبر، والخليل بن أحمد، وعمارة بن عقيل..."[20]، فكتابه هذا بذوق صاحبه الأدبي تناول فنون القول كالشعر والنثر وغيرهما ولم يقدم تعريفا واضحا للشعر ينسب له في حد ذاته.

3- مفهوم الشعر عند أبي علي الحسن ابن رشيق المسيلي القيرواني (390هـ-456هـ):

إنه النابغة المغربي الفاضل البليغ الأديب الجليل الذي اشتهر بمؤلفه ذائع الصيت: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده وقد قال فيه ابن خلدون في مقدمته: "وممّن ألّف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق، وكتاب العمدة له مشهور، وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه، واعلم أنّ ثمرة هذا الفنّ إنّما في فهم الإعجاز من القرآن..."[21]، وهو كتاب موسوعي اشتمل على قضايا نقدية عديدة ومتشعبة لا يسعنا المقام ها هنا حتى نتناولها جلها، بل القمين بالذكر هو حد الشعر عند هذا العلامة الفهامة الذي حاول أن يضع ما يميز الشعر عن غيره من الفنون بقوله: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر، لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر، لعدم القصد والنية، كأشياء اتزنت من القرآن، ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك مما لا يطلق عليه أنه شعر..."[22]، يبدو من خلال هذا الحد للشعر أن ابن رشيق يرى أنه يتأسس على أربعة أشياء رئيسية وقد ذكرها بلفظها، لكن الشعر قبل كل هذه العناصر هو نية وقصد وقد فسر المقصود من ذلك حيث أورد أن هناك كلاما يأتي موزونا مقفى وهو ليس بشعر، وهنا يبرز واضحا أن الشعر يرتبط بالحالة النفسية لقائله وهو الشاعر تحديدا من خلال ذلك الإحساس النفسي الذي يُبعث ليؤثر في المتلقي.

لكن هذا لا يعني أن هذا الناقد لم يردد ما أورده النقاد السابقون من كون الشعر هو كلام موزون مقفى بل زاد عليه عنصر النية التي بها يُستطاع التمييز بين الشعر والنثر لأن عنصر التأثير القائم على الشعور هو المعول عليه في حد الشعر لديه ويعضد ذلك هذا القول الذي يصب في ما يمكن أن يرتبط بسبب إطلاق تسمية "شاعر" التي ترتبط بالموهوب القائل للشعر: "وإنّما سمى الشاعر شاعراً، لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره؛ فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ أو ابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص ممّا أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان إطلاق اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلاّ فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير"[23]، وعلى هذا الأساس فلا نية بلا موهبة ولا شعر أصلا دون اجتماعهما. وما يزيد من قيمة ما ذهب اليه ابن رشيق حول أن الشعر في أساسه وجدان وشعور وأن له قدرة عجيبة على التأثير واستمالة المتلقي بطريقة تلعب فيها المشاعر الدور الأساسي في تحقيق نشوة في الروح عند الاستماع.

مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

كما تطرق في موقع آخر من كتابه إلى مسألة الطبع باعتباره ركن ركين في قول الشعر وذلك حين يعقد مقارنة على وجه المشابهة بين البيت من الشعر والبيت من الأبنية، ولا يغفل ابن رشيق القيرواني وهو الحاذق بأمور النقد أن يضيف إلى العنصر السابق –أي الطبع- عنصرا مهما آخر تداولته الكتب النقدية وتم عده من السبل التي تؤدي بصاحبها إلى الفحولة نظرا لما تقدمه من معونة كبرى في تأصيل الطبع وهي الرواية، وبناء عليه يقدم ابن رشيق نظرته في الشعر حيث يقدم للشاعر نصائح من قبيل حفظ الأشعار والأخبار التي ستعينه دون شك في شحذ همته وتنوير بصيرته وتقوية طبعه لأن هذا الأمر ليس بدعا بل هو موجود عند الشعراء الفحول، وأن يتعلم ممن أكثر منه خبرة لأن معرفة الشيء لا تتأتى إلا من خلال مدارسته ومعرفته حق المعرفة، فحتى المطبوع سيتوه ولن يجد له منفذا إذا لم يهتد بالرواية التي تكمل الطبع وتنقح القريحة وتنمي السجية وتفتق الذهن وتمنح النقاء وتضمن للشعر طول بقاء، ولا يشكل الأمران السابقان مجتمعان ما قصد به ابن رشيق إلا بإضافة عنصرين مهمين وهما: العلم، والدربة، والعلم هنا باب واسع للشاعر أن يدخل من أبوابه العديدة كمعرفة أيام العرب وأنسابها وأخبارها وأمثالها وحكمها ولغتها غريبها متداولها... والدربة التي تصقل شاعرية الشاعر من خلال اقتدائه بمن سبقوه والسير على سمتهم حتى تتم المهارة وتكتمل الموهبة وتخرج الصناعة في أجود ما يكون، وعلى كل حال فإن هذا الجهد محفوظ واتباع القدماء موجود في آرائه النقدية التي خبرناها في مفهومهم للشعر.

4- مفهوم الشعر عند أبي الحسن بن محمد بن الحسن بن حازم الأنصاري المعروف بحازم القرطاجني (608هـ-684هـ):

إن المعول عليه في هذا الباب هو كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء الذي حوى بين دفتيه آراء عميقة عمق فكر صاحبها الذي منح الدرس النقدي والبلاغي روحا جديدة لتفرد هذا الكتاب بخصائصه عما سبقه عندما اعتمد على نظريات أرسطو في البلاغة والشعر، وهو على هذا الأساس قد استفاد من التراث الفلسفي اليوناني في دبجه كتابه ذائع الصيت وهذا ما يلمس في تعريفه للشعر إذ يقول: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك. وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب. فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها."[24]، مما تجدر الإشارة إليه بداية أن هناك مشاكلة مبدئية بين هذا التعريف والتعريفات التي مرت

معنا سابقا، حيث نجد الشعر كلام موزون مقفى إلا أن المخالفة تكمن في جعله الشعر يقوم بعد تلك العناصر على التأثير في قوله التحبيب والتكريه أي في فكرة التلقي والقوة الانفعالية التي تحرك النفس وتؤثر فيها، ولو أمعنا النظر لوجدنا أن النقطتان البؤريتان في هذا التعريف هما أمران أساسيان: المحاكاة والتخييل، فما المقصود بهما؟

فالمحاكاة في اللغة لا تعدو أن تكون معبرة عن المشابهة والإتيان بالمثل وقد عبر عنها أفلاطون بقوله: "تقليد لأناس يمارسون عملا اختياريا أو اضطراريا، ويحسبون أن عملهم هذا يتمخض عن نتائج خيرة أو شريرة."[25]، كما أن المحاكاة عنده ما هي إلا ضرب من العبث "فأفلاطون، باسم الحقيقة والفضيلة، يحقر المحاكاة وجميع الفنون التي تعتمدها، وخصوصا الشعر، موجبا طردها من دولته المثالية: دولته عقلية منظمة، والشعر عاطفي قلق، فضلا عن أنه ضار حقير."[26]، أما أرسطو فقد دافع عن المحاكاة مانحا إياها جانبا إيجابيا نافيا أن تكون هناك خصومة بين الشعر والفلسفة، وهذا يعني أنه لم يتبع آراء أستاذه. بل خالفها ليثبت أن الانسان يتعلم بالمحاكاة وهي ليست ضارة بل نافعة، فالفن ذو غاية سليمة بل يؤدي إلى التطهير، وهو في كل هذا يبني آراءه على أن المحاكاة هي جوهر الشعر وصميمه..."[27].

والأخيرة –أي التخييل– كما جاء في لسان العرب: "خيل: خَالَ الشَّيءَ يَخَالُ خَيْلًا وَخِيلة وَخَيلة وَخَالا وَخِيلا وَخَيَلَانا وَمَخالة وَمَخِيلَة وَخَيْلُولة: ظنه..."[28]، وهو كما يرى حازم في قوله: "والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه أو نظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها، انفعالا من غير روية، إلى جهة من الانبساط أو الانقباض."[29]، وهي توحي في أبسط دلالة لها على أن الشاعر يتفاعل مع عالم خارجي عنه يبني من خلاله تصورات تترجم وفقا لإحساسه وشعوره شعرا، ويتم ذلك من خلال التقاء عالمين عالم الشاعر الداخلي المرتبطة بنظرة الفنان طبعا والعالم الخارجي المحاكى فالشعر "كلام مخيل موزون، مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك. وإلتئامه من مقدمات مخيلة، صادقة كانت أم كاذبة، لا يشترط فيها، بما هي شعر، غير التخييل"[30]، وبناء على هذا فإن جوهر الشعر هو التخييل، فالعبرة في التمييز بين ما هو شعر وما ليس بشعر لا يكون في الصدق والكذب بل في كون الشعر كلاما مخيَّلا لأن مهمة الشعر الأولى هي التأثير، فالعملية الشعرية "تبدأ بالصور المخيلة التي تنطوي على معطيات مثيرة وموحية، وتحدث فعلها

عندما تستدعي خبرات المتلقي المختزنة والصور المخيلة، فتحدث الإثارة التي يسعى إليها الشاعر، ويلج المتلقي عالم الإيهام، فيستجيب لمجرد الانفعال بالأثر الجمالي."[31]

يظهر أن نظرة حازم القرطاجني للشعر بما فيها من تركيز على فكرتي التخييل والمحاكاة قد غيرت في التصورات النظرية السابقة لمفهوم الشعر عند النقاد الذين سبقوه، لأنه ببساطة قد فهم مغزى الشعر بما أنه تأثير قبل كل شيء أو هو ما يحدث من انفعالات لدى المتلقين تؤدي إلى الانبساط أو الانقباض، وبما فيه من قدرة على توجيه سلوكهم.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث الذي حاول الوقوف على التصورات النظرية لمفهوم الشعر ببلاد المغرب الإسلامي تم التوصل إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

- لا يمكن بأي شكل من الأشكال فصل كل ما ارتبط بمفهوم الشعر في بلاد المغرب ما قدمه المشارقة بداية، حيث كانت لهم آراء طيبة في هذا المضمار، وقد استفاد النقاد المغاربة من هذه الآراء كثيرا، فكانت انطلاقتهم من هذه القاعدة التي وضع لبناتها المشارقة.
- ارتبط مفهوم الشعر عند النهشلي بالفطنة فالشاعر الموهوب له القدرة على قول الشعر في مواطن متعددة ومختلفة، لاجتماع خصائص لا تكون لسواه قوامها الذكاء الذي يمكنه من التمييز بين دقائق الأمور واكتشاف علاقات جديدة بينها.
- لم يقدم القزاز مفهوما للشعر في مصنفه الضرائر بل اهتم في كتابه هذا بكل الجوزات التي تصح للشاعر، وقد كان مدافعا عن الشعر والشعراء ضد النحاة المتزمتين الذين رأوا في ذلك الخروج مفسدة للشعر.
- أما الحصري القيرواني فقد جعل من مصنفه مختصا بالأدب لا بالنقد حيث تطرق فيه لنقد الشعر والشعراء والموازنة بينهم، والحديث عن بعض أغراض الشعر وبناء القصيدة، وبلاغة اللفظ والمعنى والطبع والصنعة، والسرقات الأدبية، ومنزلة الشعر وقائليه...
- جعل ابن رشيق القيرواني للشعر أربعة أشياء رئيسية وقد ذكرها بلفظها اللفظ والوزن والقافية والمعنى، لكن الشعر قبل كل هذه العناصر هو نية وقصد وقد فسر المقصود من ذلك حيث أورد أن هناك كلاما يأتي موزونا مقفى وهو ليس بشعر، فالشعر شعور لا يتأتى من شاعر موهوب.

- ركز القرطاجني في وضعه حدا للشعر على المحاكاة والتخييل باعتبارهما جوهر الشعر وحقيقته، فلا يستقيم دونهما، وهو على هذا الأساس يعتبر الشعر ما أثر في المتلقين دون النظر في صدقه أو كذبه.

هوامش:

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج4، ص410.

[2] محمد بن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، (2001)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، ص15.

[3] نفسه، ص ص26/27.

[4] إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، (1971)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، ص94.

[5] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: كتاب الحيوان، ج3، (1965)، تح، عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، ص ص131/132.

[6] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ج1، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، ص62.

[7] نفسه، ص ص64/66/68/69.

[8] أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، دط، دت، 64.

[9] نفسه، ص31.

[10] بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، (1981)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، ص53.

[11] نفسه، ص ص55/56.

[12] عبد الكريم النهشلي القيرواني: الممتع في صنعة الشعر، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، دط، دت، ص11.

[13] نفسه، ص19.

[14] الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج2، (2002)، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، ص337.

[15] عبد الكريم النهشلي، مصدر سابق، ص19.

مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

[16] أبو علي الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده ج1، (1981)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط5، ص118.

[17] عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، (1929)، المطبعة الرحمانية بمصر، ص292.

[18] نفسه، ص87.

[19] أحمد يزن، يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مرجع سابق، ص341.

[20] المرجع السابق، ص88.

[21] ابن خلدون: المقدمة، (1984)، الدار التونسية للنشر، دط، ص72.

[22] ابن رشيق القيرواني: العمدة، مصدر سابق، ص ص120/119.

[23] المصدر نفسه، ص116.

[24] أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3، دت، ص71.

[25] جمهورية أفلاطون: نقل حنا خباز، بيروت، (1969)، نقلا عن مصطفى الجوزو، نظريات الشعر عند العرب، (1981)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص89.

[26] مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب، ص90.

[27] أنظر: نفسه، ص ص91/90.

[28] ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص226.

[29] حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص79.

[30] المرجع السابق، ص89.

[31] بديعة الخرازي: مفهوم الشعر عند نقاد المغرب والأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة نقدية تحليلية، (2005)، دار المعرفة للنشر، الرباط، المغرب، ط1، ص102.